تبيين كذب المفتري

فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري

حقوق الطبع محفوظة للناشر

رقم الإيـــداع : ٢٢٠٥ / ٢٠١٠

الترقيم الدولي : 978 – 977-315-235-9

(١٧) من تراث الكوثري

تبيين كذب المفتري

فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري

ألفه

أبي القاسم علي بن الحسن بن هبة الله

ابن عساكر الدمشقي

قدم له وعلق عليه

محمد زاهد الكوثري

وكيل المشيخة الإسلامية في الخلافة العثمانية سابقاً

الناشر

المكتبة الأزهرية للتراث — الجزيرة للنشر والتوزيع

٩ درب الأتراك خلف الجامع الأزهر الشريف - ت: ٢٥١٢٠٨٤٧

مقدمة الطبعة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد حمداً لله على آلائه ،والصلاة والسلام على صفوة أنبيائه سيدنا محمد وآله وأصحابه، فقد كان وقع بيدى من خزانة جدى المرحوم السيد عبدالباقى الحسنى الجزائرى مفتى المالكية بدمشق، أعلى الله مقامه فى الجنان، أصل وثيق من هذا الكتاب فاستعرضته بجملته فاستقبلنى فيه من سيرة أبى الحسن الأشعرى ـ إمام أهل السنة غير مزاحم ـ والدفاع عنه، ومن تراجم صحبة وأتباعه. ومن تاريخ علم الكلام وأطواره ـ والأمة لاجرم فى حاجة إلى تواريخ علومها ـ ما أهجز فى ضميرى أن من حق العلم علينا أن نبعث مثل هذا الكتاب حيًّا.

استطلعت فى ذلك رأى أستاذنا الشيخ محمد زاهد الكوثرى فانشرح صدره، وذكر لى كلمة ابن السبكى فى هذا الكتاب: «كل سنىٍّ لايكون عنده كتاب التبيين لابن عساكر فليس من أمر نفسه على بصيرة» وكلمة ابن أبى الحجاج الاندلسى فى فهرسته: «لو لم يكن للحافظ ابن عساكر من المنة على الأشعرى إلا هذا الكتاب لكفى به» فانعقدت النية على إخراجه للناس، بيد أن يداً شلاء كانت اتلفت من هذا الأصل الباقى صدره (١) فسألت استاذنا المذكور إرشادى إلى نسخة نستتمها فأخبرنى بأنه كان اطلع على نسخة قديمة منه فى خزانة شيخ الإسلام فيض الله افندى فى الآستانة. وقبل أن نكتب إلى هناك رأيت عند المرحوم نور الدين بك

(١) من عادة الحشوية أن يترصدوا الفرص لافناء أمثال هذه الكتب إما بحرقها علانًا يوم يكون لهم شوكة وسلطان أو بسرقتها من دور الكتب أو بوضع مواد متلفة فيها. وإما بتشويهها بطرح ما يخالف عقولهم منها عند نسخها أو بالكشط والشطب فى نسخها الأصلية.. وكتابنا هذا كان حظه من النوع الثالث من فنون احتيالهم. ولكن أبى الله إلا أن يظهر الحق فلم تأكل هذه المادة غير أوله.

مصطفى فى القاهرة نسخة قديمة أيضا من هذا الكتاب وبينا أنا أفحص مانحن مضطرون إلى استنساخه منها، اذ عثرت على نقص فيه فاستوفيناه من نسخة الآستانة، وكنت وقفت فى دار الكتب السلطانية المصرية على جزء ملخص من الكتاب مطبوع فى الغرب (١) فلما اعتزمت النشر رجوت

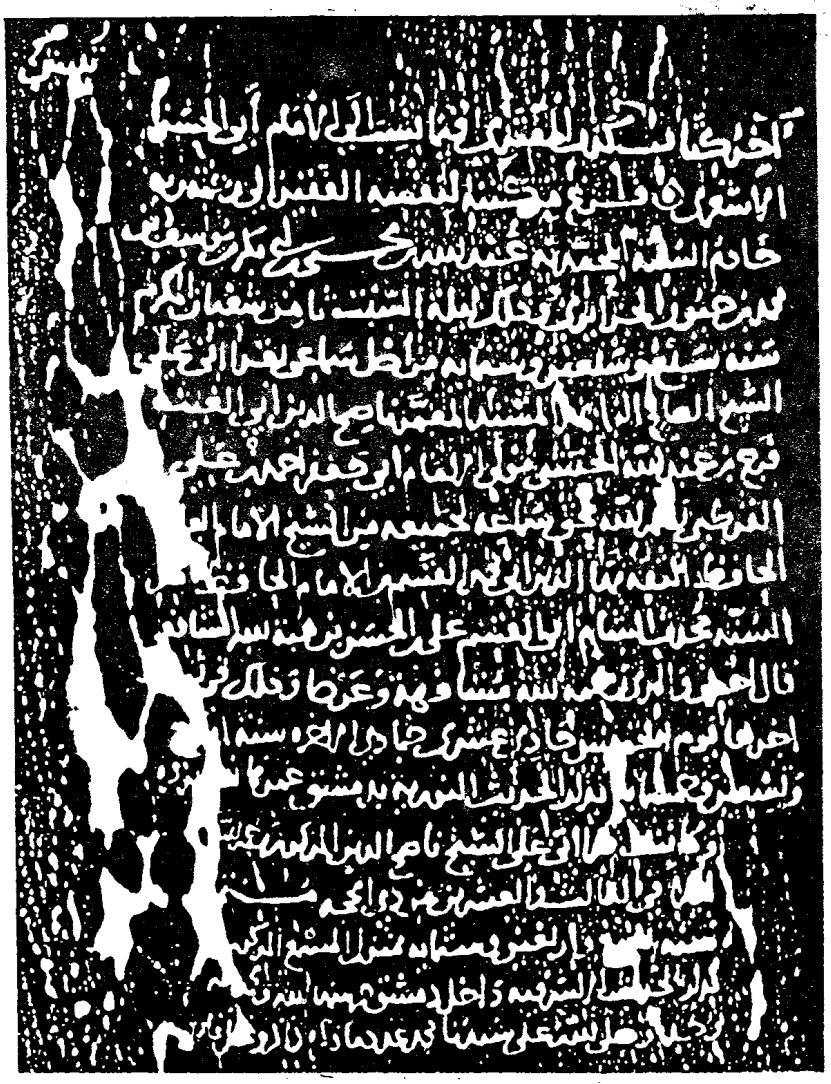

هذه صورة صفحة من آخر الأصل الباقى الذى اعتمدنا عليه بالطبع

---

(١) طبع فى ليدن عام ١٨٧٨ للميلاد، وهو فى ١٦٥ صفحة بقطع الربع الصغير. منها ٨٦ صفحة ترجمة للأصل باللغة الافرنسية باعتناء م.ا. ف مهرن. وقد وقع فيه من الأخطاء ماسنجعله من حججنا على من افتتن بهم وعدهم بزعمه مضرب المثل فى العناية بما ينشرون من آثار العرب وهم بعد لم يحذقوا اللغة العربية ولن يحذقوها كأبنائها.

من حضرة صاحب السعادة الاستاذ المحقق أحمد باشا تيمور ـ أطال الله بقاءه ـ السماح لنا بمعارضة نسختنا بهذا الجزء من خزانته الزاهية فتكرم بارساله مصحوبا بقطعة مخطوطة من مختصر آخر للكتاب فأحمدنا عنايته فيما يوجه إلينا من أشعة ضوء خزانته اللامع، وما يوردنا من منهل علمه الصافى.

هذا وقد تفضل أستاذنا الكوثرى ـ حفظه الله ـ بتتويج هذا الكتاب بمقدمة حافلة وتذييله بتعليقات قيمة تطلبتها مواضع منه بعد أن أمرنى بدرس حياة المصنف ونشر مايتسع له المقام منها ومن الله التوفيق.

حسام الدين القدسى

صفحة من حياة المصنف (*)

مولده وميلاده: ولد بدمشق أول المحرم من سنة تسع وتسعين وأربعمائة للهجرة.

اسمه ولقبه: ثقة الدين أبو القاسم على بن الحسن بن هبة الله بن عبدالله بن الحسين بن عساكر، وليس فى اجداده من اسمه عساكر (وإنما هى تسمية اشتهرت عليهم فى بنيهم ولعله من قبل أمهات بعضهم على مافى ذيل الروضتين).

بعض شيوخه ورحلاته: تفقه فى حداثته بدمشق على الفقيه أبى الحسن السلمى، وسمع فيها سنة خمس وخمسمائة باعتناء أبيه وأخيه ضياء الدين، من أبى القاسم النسيب - صاحب الفوائد العشرين - وقوام بن زياد وسبيع بن قيراط وأبى طاهر الحبال وأبى الحسن بن الموازينى وطبقتهم، وسمع بنفسه من والده محمد الاكفانى وأبى الحسن بن قبيس، وعبدالكريم ابن حمزة. ورحل إلى بغداد عام عشرين وأقام بها خمس سنين ولزم بها التفقه وسماع الدروس بالنظامية، وقرأ الخلاف والنحو، وسمع فيها أبا القاسم بن الحصين وأبا الحسين الدينورى وقراتكين بن الاسعد وأبا العز بن كادس وأبا غالب بن البناء وأبا عبدالله البارع وقاضى المارستان محمد بن عبدالباقى الأنصارى وطبقتهم وقصد مكة فسمع عبدالله بن محمد الغزال ورزين بن معاوية العبدرى. وانتقل إلى المدينة فسمع بها من أبى الفتوح عبدالخلاق بن عبدالواسع بن عبدالهادى الأنصارى الهروى. وتوجه إلى الكوفة فسمع عمر بن إبراهيم الزينبى. وعاد إلى بغداد يسمع الحديث ويقرأ الخلاف والفقه. ثم رجع إلى دمشق. ورحل إلى خراسان ودخل نيسابور سنة تسع وعشرين فسمع بها أبا عبدالله الفزارى وأبا محمد السندى، وزاهر بن طاهر الشحامى وأخاه وجيها وأبا المظفر العنزى. وسمع أبا عبدالله الفراوى وعبدالنعم بن القشيرى وسعيد بن أبى الرجاء والحسين ابن عبدالملك الخلال وطبقتهما بأصبهان. ويوسف بن أيوب الهمذانى الزاهد بمرو، وتميم بن أبى سعيد الجرجانى وطبقته بهراة، وغيرهم فى تبريز

(*) عن «معجم الأدباء لياقوت» و«الروضتين وذيلها لأبى شامة» و«رجال جامع المسانيد لأبى المؤيد الخوارزمى» و«وفيات الأعيان لابن خلكان» و«تذكرة الحفاظ للذهبى» و«طبقات الشافعية الكبرى لابن السبكى» و«شذرات الذهب لابن العماد» وغيرها.

وميهنة وبيهق وخسر وجرد وطوس وبسطام ودامغان والرى وزنجان وهمذان وأسداباد وحبى وبون وبوشنج وسرخس ونوقان وسمنان وأبهر ومرند وخوى وجرباذقان ومشكان وروذراور وحلوان وأرحبيش والانبار والرافقة والرحبة وماردين وماكسين والشاهجان وأبيورد. وقفل إلى بغداد فى سنة ثلاث وثلاثين وكتب عنه جماعة. ثم عاد إلى دمشق يحدث ويملى ويصنف إلى آخر عمره. وعدد شيوخه ألف وثلاثمائة شيخ وثمانون امرأة وتيف[1].

بعض تلامذته والآخذين عنه : سمع منه معمر بن الفاخر وأبو العلاء الهمذانى وأبو سعد السمعانى والكبار، وحدث عنه ولده القاسم وأبو جعفر القرطبى وزين الأمناء أبو البركات بن عساكر، وأخوه الشيخ فخر الدين وابن أخيه عزالدين النسابة، وعبدالقادر الرهاوى وأبو القاسم بن صصرى ويونس بن محمد الفارقى الخطيب، وأبو نصر الشرازى ومحمد ابن منصور السفيانى ومحمد بن روسى الحردانى، ومحمد بن غسان الحمصى والمسلم بن أحمد المازنى، وذاكر الله الشعيرى وعبدالرحمن بن راشد البيت سوائى وعمر بن عبدالوهاب البراذعى وعتيق السلمانى وبهاء الدين على ابن الحميرى ورشدين بن المسلمة وسديد الدين مكى بن علان وخلق كثير.

محله فى العلم والأخلاق : قال له شيخه أبو الحسن بن قبيس وقد عزم على الرحلة انى لأرجو أن يحيى الله بك هذا الشأن وكان كما قال، وقال سعد الخير: ما رأيت فى سن ابن عساكر مثله، وقال أبو المواهب بن صصرى: لما دخلت همذان قال لى الحافظ أبو العلاء المقرى امام همذان يوما: أى شيء فتح له وكيف بر الناس له؟ قلت هو بعيد عن هذا كله لم يشتغل منذ أربعين سنة إلا بالجمع والتصنيف والمطالعة والتسميع حتى فى نزهته وخلواته، ثم قال: ما كنا نسمى أبا القاسم ببغداد إلا شعلة نار من ذكائه وتوقده وحسن إدراكه، وقال الحافظ عبدالقادر: ما رأيت أحفظ من ابن عساكر، وقال ابن النجار: أبو القاسم امام المحدثين فى وقته انتهت إليه

---

(١) ولو رحت اذكر أشياخه الذين روى عنهم فى مصنفاته لاسيما «تبيين كذب المفترى» لخرجت عن حد الايجاز الذى انا بسبيل منه.

الرياسة فى الحفظ والاتقان النبل وحسن التصنيف والمعرفة التامة، وبه ختم هذا الشأن، وبخط الحافظ معمر بن الفاخر فى معجمه: ثنا الحافظ أبو القاسم الدمشقى بمنى وكان احفظ من رأيت من طلبة الحديث وكان شيخنا اسماعيل بن محمد الامام يفضله على جميع من لقيناهم، قدم اصبهان ونزل فى دارى، وما رأيت شابا أورع ولا أحفظ ولا اتقن منه وكان مع ذلك فقيها أديبا سنيا جزاه الله خيرا وكثر فى الإسلام مثله وانى سألته كثيرا عن تأخره عن المجيء إلى اصبهان فقال لم تأذن لى أمى. وقال الحافظ أبو العلاء الهمذانى لبعض تلامذته وقد استأذنه أن يسافر: ان عرفت استاذا اعلم منى أو يكون فى الفضل مثلى فحينئذ آذن لك ان تسافر إليه اللهم إلا أن تسافر إلى الشيخ الحافظ ابن عساكر فإنه حافظ كما يجب، قال وسمعت شيخنا عبدالوهاب بن الأمين قال: كنت يوما مع الحافظ أبى القاسم بن عساكر وأبى سعد بن السمعانى نمشى فى طلب الحديث ولقاء الشيوخ فلقينا شيخا فاستوقفه ابن السمعانى ليقرأ عليه شيئا وطاف على الجزء الذ هو سماعه فى خريطته فلم يجده وضاق صدره فقال له ابن عساكر ما الجزء الذى هو سماعه قال كتاب البعث والنشور لابن أبى داود سمعه من أبى نصر الزينبى فقال له: لا تحزن وقرأه عليه من حفظه أو بعضه قال ابن النجار: الشك من شيخنا.

وقال فيه الشيخ محيى الدين النووى: هو حافظ الشام بل هو حافظ الدنيا الامام مطلقا الثقة الثبت.

قال الحافظ المنذرى: سألت شيخنا الحافظ أبا الحسن على بن المفضل المقدسى فقلت له: أربعة من الحفاظ تعاصروا أيهم احفظ قال من هم؟ قلت ابن عساكر وابن ناصر قال ابن عساكر احفظ قلت أبو العلاء وابن عساكر قال ابن عساكر أحفظ قلت أبو طاهر السلفى وابن عساكر؟ فقال السلفى استاذنا، قال الحافظ زكى الدين وغيره من الحفاظ الأثبات كالذهبى وأبى العباس بن المظفر: هذا دليل على أن عنده ابن عساكر احفظ إلا أنه وقر شيخه ان يصرح بأن ابن عساكر احفظ منه قال الذهبى وإلا فابن عساكر احفظ منه قال وما أرى ابن عساكر رأى مثل نفسه.

وكان الملك العادل محمود بن زنكى نور الدين قد بنى له دار

الحديث النورية فدرس بها إلى حين وفاته، ولما قدم إلى بغداد أعجب به البغداديون وقالوا قدم علينا من دمشق ثلاثة ما رأينا مثلهم: الشيخ يوسف الدمشقى والصائن أبو الحسين هبة الله بن الحسن وأخوه أبوالقسم، وقال القاسم حدثنى أبى رحمه الله قال كنت يوما اقرأ على شيخنا أبى الفتح المختار بن عبدالحميد وهو يتحدث مع جماعة بالعجمية فقال قدم علينا الوزير أبو على فقلنا ما رأينا مثله ثم قدم علينا أبو سعد بن السمعانى فقلنا ما رأينا مثله حتى قدم علينا هذا فلم نر مثله. وقال ابن قاضى شهبة: فخر الشافعية وإمام أهل الحديث فى زمانهم وحامل لوائهم.

وقال أبو شامة فى ذيل الروضتين عند ترجمة الفخر بن عساكر: وهذا البيت (بنو عساكر) بيت جليل من الدمشقيين كثير الفضلاء والحفاظ والأمناء جمع هذا البيت رياسة الدين والدنيا، وأجلهم فى زمانه دينا وعلما هذا فخر الدين ابن عساكر وفى القرن الذى قبله عماه الصائن هبة الله والحافظ أبو القاسم.

وكان رحمه الله حسن السمت مواظبا على الجماعة والتلاوة يختم كل جمعة ختمة، ويختم فى رمضان كل يوم، ويعتكف فى المنارة الشرقية وكان كثير النوافل والأذكار ويحيى ليلة العيدين بالصلاة والذكر وكان يحاسب نفسه على لحظة تذهب فى غير طاعة، يصدع بالحق لايخاف فى الله لومة لائم، ويسطو على أعداء الله المبتدعة، وكان معرضا عن الدنيا والمناصب بعد عرضها عليه كثيرا، قليل الالتفات إلى الأمراء وأصحاب الدينا.

طرف من شعره: للحافظ شعر كثير قلما أملى مجلسا إلا وختمه بشىء منه قال السمعانى وأنشدنى لنفسه ببغداد:

وصاحب خان ما استودعته وانى ... ما لا يليق بأرباب الديانات
وأظهر السر مختارا بلا سبب ... وذاك والله من أوفى الجنايات
أما أتاه عن المختار فى خبر ... ان المجالس تغشى بالأمانات

ومنه ما أنشده فى آخر مجلس له فى الصفات :

الحمد لله الذى ... يرجو الخلائق منه فضله
متكلم لا يعترى ... قولا له خرس وعله
لكلامه نعت الكما ... ل فلا تكن فى ذاك أبله
خلق السماء كما يشا ... ء بلا دعائم مستقله
لا للتحيز كى تكو ... ن لذاته جهة مقله
رب على العرش استوى ... قهرا وينزل لا بنقله
ويرى ويسمع لابجا ... رحة ولا انسان مقله
اذ كان فردا غير منـ ... ـعوت بأبعاض وجملة
صمدا تنزه ان تقو ... م به الحوادث أو تحله
لا مبتدأ لوجوده ... اذ كان مخترع الأهله
وبقاؤه لا ينقضى ... بل يسترد الأمر كله
يعطى ويمنع عبده ... ما عنده من غير خله
ويحب أهل الخير منـ ... ـنا غير منتفع بخله
وهو الحليم فطالما ... ستر العصاة له بمهله
هذا اعتقاد موحد ... عرف المذاهب بالأدلة
أبدا ينزه فاعتقد ... ه فلست تسمع قط مثله
وذر اعتقاد مشبه ... لله عنك فما أضله

وقد ختم المصنف كتاب التبيين الذى بين يديك بقصيدة لعلها من أجود قصيده .

أسماء مؤلفاته مرتبة على الحروف : (إجابة السؤال فى أحاديث شعبة جزء واحد) (أحاديث أبى الأشعث الصنعانى ٣ أجزاء) (أحاديث جماعة من كفر سوسية ١) (أحاديث حنش والمطعم وحفص الصنعانيين ١) (الأحاديث الخماسيات واخبار ابن أبى الدنيا ١) (أحاديث صنعاء الشام ٢) (الأحاديث المتخيرة فى فضائل العشرة ٢) (اخبار أبى عمرو الأوزاعى

وفضائله ١) (اخبار أبى محمد سعد بن عبدالعزيز وعواليه ١) (أربعون حديثا عن أربعين شيخا من أربعين مدينة ٢) (أربعون حديثا مساواة الامام أبى عبدالله الفراوى ١) (الأربعون الطوال ٣) (الأربعون فى الجهاد ١) (الاشراف على معرفة الأطراف ٤٨) (الاعتزاز بالهجرة ١) (الاقتداء بالصادق فى حفر الخنادق ١) (الانذار بحدوث الزلزال ٣) (تاريخ مدينة دمشق واخبارها وأخبار من حلها أو وردها فى ٥٧٠ جزء من تجزئة الأصل) (التالى لحديث مالك العالى ١٩) (تبيان الوهم والتخليط فيما أخرجه أبو داود من حديث الاطيط ١) (تبيين الامتنان فى الأمر بالاختتان) (تبيين كذب المفترى فى مانسب إلى الإمام أبى الحسن الأشعرى ١٠) (تخريج المجالس السبعة لشيخه أبى الحسن السلمى مع الكلام عليها) (ترتيب الصحابة فى مسند أحمد ١) (ترتيب الصحابة فى مسند أبى يعلى ١) (تشريف يوم الجمعة ٧) (تقوية المنة على انشاء دار السنة ٣) (تكميل الأنصاف والعدل بتعجيل الأسعاف بالعزل ١) (تعذيب المتلمس من عوالى مالك بن أنس ٣١) (ثواب الصبر على المصاب بالولد ٢) (الجواب المبسوط لمن ذكر حديث الهبوط ١) (الجواهر واللآلى فى الابدال العوالى ٣) (حديث أبى بكر بن محمد بن رزق الله المنينى المقرى ١) (حديث أهل قرية البلاط ١) (حديث أهل بيت سوا ١) (حديث جماعة من أهل بيت لهيا ١) (حديث جماعة من أهل جوبر ١) (حديث جماعة من أهل حرستا ١) (حديث أهل قرية الحميريين وقينية ١)[١] (حديث أهل دقانية وحجرا وعين ثرماء [٢] وجديا وطرميس ١) (حديث دومة ومسرابا والقصير ١) [٣] (حديث أهل زبدين وجسرين ١) (حديث بن عبادة ١) (حديث سلمة بن على الحسنى البلاطى ٢) (حديث أهل فذايا وبيت ارانس وبيت قوفا ١) [٤] (حديث أهل كفر بطنا ١) حديث يحيى بن

(١) فى النسخة المطبوعة من معجم الأدباء لياقوت بتصحيح د.س. مرجليوث: الحميريين وقبيبة. والصواب ما اثبتناه اعتمادا على معجم البلدان وضرب الحوطة.

(٢) الذى فى معجم الأدباء: جخراء، وعين توما.

(٣) وفى معجم الأدباء: القصر.

(٤) جاء فى معجم الأدباء: قذايا وبيت فوقا، وكلاهما خطأ.

حمزة البتلهى وعواليه ١) (حديث يسرة بن صفوان وابنه وابن ابنه ١) (دفع التثريب على من فسر معنى التثويب ١) (ذكر البيان عن فضل كتابة القرآن ١) (ذكر ما وجدت فى سماعى مما يلتحق بالجزء الرباعى) (ذم من لايعمل بعلمه) (روايات ساكنى داريا ٦) (السداسيات ١) (طرق حديث عبدالله بن عمر ١) (عوالى حديث سفيان الثورى وخبره ٤) (فضائل مقام إبراهيم ومن حديث أهل برزة ١) (فضل أصحاب الحديث ١١) (فضل الربوة والنيرب ومن حدث بهما ١) (فضل عاشوراء والمحرم ٣) (فضل الكرم على أهل الحرم ١) (القول فى جملة الأسانيد فى حديث المؤيد ٣) (كشف المغطا فى فضل الموطا) (ما وقع للأوزاعى من العوالى ١) (مجموع من أحاديث جماعة من أهل بعلبك ٢) (مجموع الرغائب مما وقع من أحاديث مالك الغرائب ١٠) (مجموع من حديث محمد بن يحيى بن حمزة الحضرمى البتلهى ٢) المستفيد فى الأحاديث السباعية الأسانيد ٤) (المسلسلات ١٠) مسلسل العيدين ١) وأملى من المجالس مئات منها (مجلس فى نفى التشبيه) (مجلس فى التوبة) (مجلس فى فضل عبدالله بن مسعود) (مجلس فى فضيلة ذكر الله) (مجلس فى التنزيه) (المشيخات الأحدى عشر التي خرجها لشيخه أبى غالب بن البناء) (مشيخة شيخه أبى المعالى عبدالله بن أحمد الحلوانى الأصولى ٢) (مصافحة لأبى سعد السمعانى وأربعين حديثا ١) (معجم اسماء القرى والأمصار التى سمع بها ١) (معجم الشيوخ النبلاء ١) (معجم من سمع نه أو اجاز له ١٢) (معنى قول عثمان ماتعنيت ولاتمنيت ١) (المقالة الفاضحة للرسالة للواضحة ١) (مناقب الشبان ١٥) (من سمع منه من النسوان ١) (من لايكون مؤتمنا لا يكون مؤذنا ١) (من نزل المزة وحدث بها ١) (من وافقت كنيته كنية زوجته ٤) (الموافقات على شيوخ الأئمة الثقات ٧٢) هذا ماتم من مصنفاته، ومما لم يتم: (الأبدال) ولو تم كان مقداره ٢٠٠ جزء أو أكثر و(ذم الرافضة) (الصفات) (فضل بيت المقدس) (فضل الجهاد) (فضل قريش وأهل البيت والأنصار والأشعرين) (فضل المدينة) (فضل مكة) (مسند مكحول وأبى حنيفة) وأشياء غير ذلك تبلغ أربعين مصنفا.

وفـاته ومـدفنه: توفى فى حادى عشر رجب سنة احدى وسبعين وخمسمائة بدمشق وصلى عليه الشيخ قطب الدين النيسابورى، وحضر جنازته بالميدان والصلاة عليه السلطان صلاح الدين بن أيوب، ودفن عند والده وأهله بمقابر باب الصغير شرقى قبر معاوية رحمهم الله تعالى(١).

* * *

(١) من بواعث الأسف اننا لم نجتمع بمن يعرف قبره اليوم، وقد بحثنا كثيرا لتحقيق موضعه فلم نتجاوز حد الترجيح فى قبر واقع فى الشرق القبلى لمدفن معاوية كتب عليه بقلم كوفى طامس مايشبه اسم الحافظ وسنة وفاته، ولعلنا نسترشد الاخصائيين بمعرفة الخطوط القديمة حتى إذا توكدنا امره جددنا معالمه اذ لاحياة لأمة نسيت ماضيها.

الحالة العامة عند البعثة النبوية

وسط عريق فى الجاهلية متوغل فى الوثنية ليس لقبائله خطوات سابقة تذكر نحو الرقى البشرى، كما لجيرانهم، ولا لهم عاطفة تصرفهم عن مثل وأد البنات والارتزاق من الغارات وما إلى ذلك من الدنايا، يعبدون ماينحتون ويعتقدون ان الملائكة بنات الله تعالى عما يافكون، وحول هذا الوسط نطاق من أمم يدينون بأديان شتى محرفة مختلقة، يجرى فى بلاد كل منهم من الفتن الدهياء وظلم الظلم السوداء مالم يقيد مثله التاريخ، وقد خسروا ما تتوارثه الأمم خالفا عن سالف من أسباب السعادة فى هذه الحياة، فضلا عما يسبب السعادة الأبدية، فمنهم أمة تدين بالتثليث والحلول ويبيع لهم كهنتهم بقاعا من الجنة فيشترون، تخلّوا عن عقولهم وهم لأربابهم مسخرون، ومنهم أهل دين عبدوا العجل الذهبي بمجرد أن غاب عنهن نبيهم مدة يسيرة ثم حرفوا كتابه واعتقدوا فى الله انه يهبط على الصخرة ويصعد منها، وأنه استلقى بعد أن خلق السموات لما لحقه من النصب، تعالى الله عما يقولون، ومنهم الصابئة عبدة الأجرام العلوية كأصحاب الهياكل الذين يرون ان الشمس إله كل إله، وكالحرانية الذين يعتقدون أن الخالق واحد كثير، واحد فى الأصل كثير بتكثر الأشخاص فى رأى العين وهى المدبرات السبع السماوية والأشخاص الخيرة الأرضية فإنه يظهر بها ويتشخص بأشخاصها، ولاتبطل وحدته وذلك بحلول ذاته أو جزء من ذاته فيها تعالى الله عما يشركون، ولهم عزائم سحرية ومخاطبات للنجوم ومنهم ورث غلاة المتصوفة وسائل مخرقتهم[1] ومنهم الثنوية ومجوس الفرس عبدة النار القائلون بخالقين اثنين، النور خالق الخير والظلمة خالق الشر على اختلاف فرقهم من مانوية وديصانية ومزدقية وغيرها، يرون أن النور غير متناه من الجهات الخمس ومتناه من حيث يلاقى الظلمة، وكان مانى رأس المانوية راهبا بحرّان، ومن معتقد المزدقية منهم ان المعبود قاعد على كرسيه فى العالم الأعلى على هيئة قعود خسرو (الملك) فى

---

(١) راجع محنة عبدالسلام الجيلى فى ذيل الروضتين ومجموعة دوزى فى الخزانة الزكية بالقاهرة.

العالم الأسفل ووراء تلك الأمم أمم أخرى على أشكال فى الغواية كالدهريين والطبيعيين نفاة الصانع وهم آفة الفضيلة والعمران فى كل جيل كالسمنية والبراهمة القائلين بنفى ماوراء الحس والمنكرين للنبوة، ولم تزل فلسفتهم أم الهوان والمذلة.

وهكذا كان الحجاز وما حوله من فلسطين والشام وبلاد الروم والعراق وأرض الفرس والهند وبلاد افريقية وما والاها حين بعث النبى صلى الله عليه وسلم فانظر يارعاك الله كيف قام هذا النبى الكريم بالدعوة إلى الإسلام فى هذا الوسط، بين تلك الملل المحيطة به ثم كيف اقام الحجة لدعوته بحيث لايدع لمعاند عذرا وكيف أيقظ العقول بطريقة لاتعلو عن مدارك العامة ولايستنكرها الخاصة، فدانوا له تباعا وعلمهم طريق التنزيه ومايجوز فى الله وما لايجوز، وفقههم فى أبواب العمل ودربهم على الفضيلة والسجايا الكريمة واستنهض الجميع نحو رقى مستمر فى العلوم والأعمال والأخلاق وما إليها استنهاضا تدريجيا بعيدا عن الطفرة والمفاجأة، ثم كيف خرق شرعه هذا النطاق وانتشر إلى جميع الآفاق فدانت الأمم بنور هدايته فى مشارق الأرض ومغاربها، ثم كيف أفاضت هذه الدعوة المباركة والنهضة الميمونة على العالمين مالم يعهد له مثيل من الخيرات فى أيسر مدة، فإذا تأملت ذلك تزداد يقينا وترى فى ثنايا تشريع هذا النبى العظيم معجزات أية معجزات تتجدد مدى الدهر. وأمهات ماتلقت الأمة من النبى صلى الله عليه وسلم هى العلم بالله وصفاته وما إليها من المعتقدات المقصودة لذاتها، والعلم بالأحكام العملية من عبادات ومعاملات يدور عليها تهذيبهم النفسى وإقامة العدل بين الخليقة والعلم بطرق اكتساب الملكات الفاضلة والتخلى عن الخلال الرديئة النفسية، مما يرشد إلى وسائل تزكية النفوس وتصفية القلوب، حتى تصدر منها الأعمال المسعدة فى النشأتين سجية لابتكليف فيتم لهم الكمالات العلمية والعملية وكان الصحابة رضى الله عنهم فى غنية عن تدوين تلك العلوم لأنهم كانوا يرجعون إلى النبى صلى الله عليه وسلم إذا اشتبهوا فى أمر فيزول الأشكال ويحصل العلم ويأنسون به فى الأعمال، ويسعون فى التخلق بخلقه العظيم، فلا يتنكبون العدل فى

شيء منها وبه قامت السموات والأرض وهم أسوة لمن بعدهم، وقام بعد عهد الصحابة طوائف من علماء الأمة بتحقيق هذه العلوم وتدوينها خلفا عن سلف فى كل قرن على حسب ماتقضى الحاجة، فكلما كان قيام العلماء بواجبهم فى ذلك أكثر كان أمر الدين أقوى وسعادة المسلمين أوفر.

* * *

لمعة فى نشأة الفرق

وبعد أن انتقل النبى صلى الله عليه وسلم إلى الدرار الباقية ارتد من ارتد فى زمن الصديق رضى الله عنه، ونجم دعاة تفريق شؤون الدنيا عن الدين باغواء من بينهم من المنافقين، فامتنعوا عن أداء الزكاة فعدهم الصحابة مرتدين لمنافاة هذا التفريق لكتاب الله الذى لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فقاتلوهم حتى هدأت الأحوال، ولم يكن الخليفة الثانى رضى الله عنه بأقل سهرا على الفاتنين فكان ينفى من يسعى لتشويش العامة بعضل المسائل من غير شبهة تكشف، والفتوح الإسلامية تجرى على اتساع عظيم والناس يدخلون فى دين الله أفواجا وتدين به الأقوام والملل، وتنصاع لهديه البلاد إثر البلاد، ولما حدثت الفتن فى خلافة عثمان رضى الله عنه استخف جانبه اعداء الدين المندسون بين المسلمين فخفوا إلى السعاية بينهم واثارة خواطرهم بما يمكن أن يروج عليهم لسلامة صدورهم وبعدهم عن معرفة طرائق تمويه الفاتنين، غير المتظاهرين بما يمس بالدين، يتنقلون فى البلاد لهذه الغاية ويمهدون السبيل إلى القضاء على هذا الدين ببث بذور الدمار، وما عمله امثال عبدالله ابن سبأ فى ذلك العهد مشهور. وبعد التحكيم فى وقعة صفين انفض الخوارج من حول على كرم الله وجهه وغلوا حتى اخذوا يكفرون مرتكب الكبيرة، ولما توفى على دام اناس على مشايعته ومشايعة آله فسموا الشيعة، وكانت زنادقة الروافض تجد بينهم مرتعا خصبا لزرع بذورهم كلما تكرر اضهاد أهل البيت من بنى أمية وغيرهم، وحين تخلى الحسن السبط عن الخلافة لمعاوية اعتزل الفريقين جماعة ولزموا مساجدهم يشتغلون بالعلم والعبادة وكانوا قبل ذلك مع

على حيثما كان وهم أصل المعتزلة[1] ويقال أن أول من قام بالاعتزال أبو هاشم عبدالله والحسن إبنا محمد بن الحنفية، ثم أخذ الثانى يرد على الخوارج فى مسألة الإيمان ويقول الإيمان هو الكلمة والعقد دون الأعمال فسمى هو وجماعته مرجئة لتأخيرهم العمل عن الإيمان وحدث منهم طائفة تقول: لايضر مع الإيمان معصية وهم مرجئة البدعة وكان عدة من احبار اليهود ورهبان النصارى وموابذة المجوس اظهروا الإسلام فى عهد الراشدين ثم اخذوا بعدهم فى بث ماعندهم من الأساطير بين من تروج عليهم ممن لم يتهذب بالعلم من أعراب الرواة وبسطاء مواليهم فتلقفوها منهم ورووها لآخرين بسلامة باطن معتقدين مافى أخبارهم فى جانب الله، من التجسيم والتشبيه ومستأنسين بما كانوا عليه من الاعتقاد فى جاهليتهم، وقد يرفعونها افتراءً إلى الرسول صلى الله عليه وسلم أو خطأ فأخذ التشبيه يتسرب إلى معتقد الطوائف ويشيع شيوع الفاحشة، ولم يكن بنو أمية كالراشدين فى السهر على معتقد المسلمين إلا فيما يمس بسياستهم فأول من انخدع بهم الشيعة ولكن سرعان ماتراجعوا عن ذلك بمناظرة المعتزلة لهم، ولم يدم فيهم دوامه بين حشوية الرواة وكانت البصرة بغدر الآراء والنحل، وقد سمع هناك معبد بن خالد الجهنى من يتعلل فى المعصية بالقدر فقام بالرد عليه ينفى كون القدر سالبا للاختيار فى أفعال العباد، وهو يريد الدفاع عن شرعية التكاليف فضاقت عبارته وقال (لاقدر والأمر أنف).

ولما بلغ ذلك ابن عمر تبرأ منه فسمى جماعة معبد قدرية ودام مذهبه بين دهماء الرواة من أهل البصرة قرونا بل تطور عند طائفة منهم إلى حد أن جعلوا للخالق ماينسبه الشنويه إلى النور وإلى المخلوق مايعزونه إلى الظلمة، وكان غيلان بن مسلم الدمشقى ينشر بدمشق رأى معبد فطلبه عمر بن عبدالعزيز ونهاه عن ذلك وكشف شبهته فانتهى، وقال (ياأمير

---

(١) قال أبو الحسين الطرائفى الشافعى (المتوفى سنة ٣٧٧) فى كتابه « رد أهل الأهواء والبدع: وهم سموا أنفسهم معتزلة وذلك عندما بايع الحسن بن على عليه السلام معاوية وسلم إليه الأمر اعتزلوا الحسن ومعاوية وجميع الناس وكانوا من أصحاب على ولزموا منازلهم ومساجدهم وقالوا نشتغل بالعلم والعبادة فسموا بذلك معتزلة هـ.

المؤمنين لقد جئتك ضالا فهديتنى وأعمى فبصرتنى وجاهلا فعلمتنى والله لا اتكلم فى شىء من هذا الأمر ابدا) ولما بدأ يذيع رأى معبد أخذ فى الرد عليه جهم بن صفوان بخراسان فوقع فى الجبر ونشأ عنه مذهب الجبرية، وكان الحسن البصرى من جلة التابعين وممن استمر سنين ينشر العلم فى البصرة، ويلازم مجلسه نبلاء أهل العلم، وقد حضر مجلسه يوما أناس من رعاع الرواة ولما تكلموا بالسقط عنده قال ردوا هؤلاء إلى حشا الحلقة أى جانبها فسموا الحشوية، ومنهم أصناف المجسمة والمشبهة، وكان واصل بن عطاء بعد أن أخذ الاعتزال عن أبى هاشم السابق ذكره يحضر فى مجلس الحسن ، وقد ذكرت مسألة الإيمان فى المجلس فبادر واصل إلى القول بأن الكافر المجاهر والمؤمن المطيع لاخلاف فى تسميتهما كافرا ومؤمنا، ومرتكب الكبيرة حيث كان موضع اختلاف فى اطلاق احدهما عليه نأبى اطلاق هذا وذاك عليه ونقول فيه انه فاسق أخذا بما اتفقوا وهجرا لما اختلفوا، وكأنه يريد التوسط بين الخلافين واستمالة الفريقين إلى رأيه، لكنه فى المعنى مع الخوارج لأنه يرى الخلود فى النار لمرتكب الكبيرة فلم يرتض الحسن كلامه، فانسحب واصل من المجلس وأخذ ينشر مذهب الاعتزال والأصول الخمسة مع صاحبيه عمرو بن عبيد وبشر بن سعيد وعنهما أخذ بشر بن المعتمر وأبو الهذيل وبالثانى تخرج أبو بكر عبدالرحمن بن كيسان الأصم وإبراهيم النظام وهشام الفوطى وعلى بن محمد الشحام، وعن النظام أخذ الجاحظ وابن أبى دؤاد - ولم يدرك واصلا كما ظن - وعن الأول انتشر الاعتزال ببغداد حيث اخذ منه أبو موسى بن صبيح وعنه جعفر بن حرب وجعفر بن مبشر وعنهما محمد بن عبدالله الاسكافى وعن الشحام أخذ الجبائى وعنه ابنه أبو هاشم، وأخذ عن الفوطى عباد بن سليمان فهؤلاء هم قادة الاعتزال فى البصرة وبغداد. وأول من عرف بالقول بخلق القرآن الجعد بن درهم بدمشق، وكان جهم أخذ ذلك القول من الجعد وضمه إلى بدعه التى قام باذاعتها ومن جملتها نفى الخلود، ولما قام الحارث بن سريج بخراسان ضد الأموية داعيا إلى الكتاب والسنة اعتضد بجهم، وكان مقاتل بن سليمان ينشر هناك نحلته فى التجسيم فأخذ جهم يرد عليه وينفى مايثبته مقاتل فأفرط فى النفى حتى قال « أن الله لايوصف بما يوصف به العباد » ولم يفرق